الأب أنستاس ماري الكرملي

لقد عمر الأسى تلك القلوب التي تحنو على اللغة العربية بانطفاء مصباح ذلك الروح الذي ظلّ يرمي عليها من ضيائه ما ينير زواياها ، ويكشف عن معالمها ، وأهمل في الجوانح ذلك اللهيب من الحزن لانطواء هذه الحياة التي جادت بمذخور ثرائها وأنفقت صحة زهرة حياتها في القيام على خدمتها ، والذود عنها ، والعمل على حفظها ، ودراسة كثير من أصولها وبحث مشتقاتها ، حتى غدت مرجعاً موثوقاً بإطلاعه ، وإلمامه في أصول اللغة ، ومشتقاتها ، وبيان تلك الوشائج التي تربط بعض الكلمات العربية بنظائرها في اللغات القديمة ، وبحث كثير من دقائقها ، ونشر ما استتر من جواهرها ، ثم أخذ يمدها بأقوى الأسباب فوق ما يخرجه من كتب بتلك الأبحاث المتنوعة ، الناضجة ، التي كانت تتجاوب بها المجلات الأدبية في أنحاء العالم العربي حاملة اليه ثمرات جهد متواصل ، وعبقرية فذة ، ثم أخذ يصدر مجلته كأنما ضاقت مجهوده وناءت بمحصوله الصحافة والكتب ، فأراد أن يخفف من عبئهما بهذه المجلة .

* * *

والواقع أن هذا الرجل قد قدم للعربية من المنن ما تعجز عنه الجامعات ، فقد احتل حبه لهذه اللغة ، وشغفه بها ، كل مشاعر نفسه ، وعواطف قلبه ، فهي مجال نشاطه ، ومجوى ضميره ، وموضع عنايته .

وحسب هذه اللغة أن تظفر بهذه الجهود التي تتجلى مظاهرها في هذا الولع في البحث ، والتنقيب ، كما تتجلى في الدأب ، والكد ، وراء المخطوطات النادرة ، فإذا ما أسعده الحظ ببعض هذه التحف ، إنثنى بها وهو لا يكاد يقف مروره عند حدّ ، فيسعى به حفيًّا ، ليطالعه في شوق ، ويستوعبه في لذة ، وقد كان له عناية خاصّة بوضع

الفوارس المنظمة لكتبه ، وبراعة فيها ، وهذه إحدى حسنات العرب التي فاقت فيها الشعوب بأسرها ، ولعله كان الوحيد فيما أعلم في العالم العربي في عصره يعرف شيئاً في هذه الناحية ، ومما سمعت منه أنه وضع معجماً كبيراً ، ولا يزال عنده مخطوطاً ، فليت يلتفت المجمع اللغوي بالاستيلاء على هذه البحوث ، ونشرها تعميماً للفائدة بها ، وشكراً لهذا الجهد ، وتلك الأهوام التي بذلت في سبيلها ، وتنظيمها من الضياع ، والنسيان . وهو أول وأعز من المجمع وكان — الآب — أحد أركانه الأقوياء ، ودعائمه المتينة ، وأنت أريد بهذه الكلمة دراسة هذا النابغة ، وتحليل آثاره القيمة ، فلكل هذا وقته ، وأهله ، . إنما أريد أن أهدف من وراء هذه الحياة إلى عبرة نستخلصها منها ؛ وهي الإخلاص في اتجاه المرء من شؤون علمية كانت ، أو أدبية ، أو لغوية أو غيرها والتخصص في الناحية التي تبرز مزاياه فيها .

وقد توافرت هاتان الخصلتان في — الآب أنستاس — فقد أرادت بيئته أن تتخذ منه نسيجاً مبشراً ، فلم يستجب لهذا إلا بمقدار حتى لا يتجنى على مواهبه ، ولا يتحيف عبقريته . ثم عرف موطن قوته ، وسمت خلوده ، فأخذ يعده بكل ما يقويه ، وينشطه ، ويمده بالحياة . وحسبه هذا التوهب في محرابه العلمي ، وإنقطاعه في ديره للبحث ، ولتأدية ما يمكن أن يؤديه الانسان المخلص من ضروب التعبد العلمي ، وإخلاصه هذا الإخلاص الذي لم يدع فرصة يمكن الاستفادة منها ، واستغلالها لمواهبه وتركها ، فلم يلهو عن مواهبه حتى يلحقها الصدأ ، ويجني عليها الاهمال ، أو يجعل رسالته تحت مغبة الظروف إن أتاحت لها العمل وإلا جارت عليها الحوادث ، بل قد فرغ من كل شيء ، وإتخذها عمله ، وراحته ، وبقيته ، ونومه ، وهذا اخلاص يعز كثيراً في هذه الأوقات ، وكأنما المقادير قاءت بهذه اللغة ألا تحرم من أمثال تلك الجهود ، فوكلت بها هؤلاء الرهبان ، ما رأيت الآب أنستاس مرة إلا طافت بذهني هذه الخواطر ، وبرزت لعيني هذه الحقيقة التي لا بدّ منها لكل جهد علمي مثمر ، جزاه الله عن خدمته للغة — القرآن — خير ما يجزي العاملون المخلصون على عملهم وإخلاصهم .

محمد عبد الحليم ابو شهبر